عندما يفصح الشعر عن هدف المؤرخ من تأليف كتابه، ابن اياس وكتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور نموذجا

د.أماني العامر

دكتوراة في قواعد وعلوم اللغة

كلية اللغات جامعة نانت / فرنسا

amani.alamer@univ-nantes.fr

0033650141427

عندما يفصح الشعر عن هدف المؤرخ من تأليف كتابه، ابن اياس وكتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور نموذجا

د. أماني العامر

ملخص

يتناول هذا البحث ثلاثة عشر بيت من الشعر ذكرهم ابن اياس في مقدمات أو خاتمات أجزاء كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور ولفت انتباهنا أن ابن اياس استطاع من خلال هذه الأبيات القليلة أن يلخص هدفه من كتابة كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور بطريقة تختصر الكثير من الكلام لذلك يناقش هذا البحث هذه الأبيات ومعانيها ومضامينها ومقارنتها مع ما قدمه ابن اياس من معلومات في كتاب بدائع الزهور حيث سيبدأ البحث بتقديم موجز عن ابن اياس وعن كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور ثم سيلقي البحث نظرة عامة على الشعر في الكتاب ومن ثم سنعرض الأبيات المقصودة بالبحث حسب ظهورها في الكتاب والعودة الى محتوى كتاب بدائع الزهور لنرى كيف استطاع ابن اياس اختصار ما قاله نثرا من خلال عدة أبيات من الشعر.

الكلمات المفتاحية: ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، العصر المملوكي، الشعر، الهدف، المحتوى.

When poetry reveals the historian's objective behind writing his books, Ibn Iyâs and his book 'Badâʾiʿ az-Zuhûr fî waqâʾiʿ ad-Duhûr', as an example.

Dr. Amani AL AMER
PHD in Grammar and Linguistics
Faculty of Foreign Languages and Cultures, University of Nantes / France
amani.alamer@univ-nantes.fr
0033650141427

Summary ʾʿ

This study focuses on thirteen verses of poetry mentioned by Ibn Iyâs in the introductions or conclusions of different parts of the book 'Badâʾiʿ az-Zuhûr fî waqâʾiʿ ad-Duhûr'. We noticed that through these few verses, Ibn Iyâs succinctly captures the essence of why he wrote 'Badâʾiʿ az-Zuhûr fî waqâʾiʿ ad-Duhûr'. This research delves into these verses, exploring their meanings and contents, comparing them with the information Ibn Iyâs provides in his book.

Starting with a brief overview of Ibn Ayâs and 'Badâʾiʿ az-Zuhûr fî waqâʾiʿ ad-Duhûr', the study then presents a general look at the poetry in the book. We subsequently showcase the verses earmarked for analysis in the order they appear in the book. The investigation involves revisiting the content of 'Badâʾiʿ az-Zuhûr fî waqâʾiʿ ad-Duhûr' to understand how Ibn Iyâs effectively condenses his prose into these selected verses of poetry.

Keywords: Ibn Ayâs, Badâʾiʿ az-Zuhûr fî waqâʾiʿ ad-Duhûr, Mamluk era, poetry, purpose, content.

مقدمة

ابن إياس، أبو البركات، محمد بن أحمد شهاب الدين الناصري الجركسي الحنفي، مؤرخ مصري ولد في القاهرة سنة ٨٥٢ / ١٤٤٨ وتوفي فيها بعد سنة ٩٢٨ / ١٥٢٢، أرخ لمصر منذ عهودها القديمة، حتى ذي الحجة سنة ٩٢٨هـ/١٩ تشرين الثاني ١٥٢٢م. وكان المؤرخ المعاصر الوحيد تقريبا الذي أحاط بأحوالها في نصف القرن الأخير من حياة الدولة المملوكية، ومطلع العهد العثماني.

لم يترجمه أحد من المؤرخين المعاصرين له ، ومن ثمَّ فإن المعلومات عن سيرته ضئيلة[١]. كان شحيحا في ذكر الأخبار عن نفسه وعائلته فلم يذكر منها سوى القليل، كتبها في بعض مناسبات مبعثرة في مواضع متفرقة من أجزاء كتابه الكبير بدائع الزهور في وقائع. فهو ينتمي إلى أسرة مملوكية ذات شأن، تولى بعض أفرادها مناصب عالية. ويذكر ابن إياس في كتابه٢ أنه ولد يوم السبت في السادس من ربيع الآخر بعد طلوع الشمس سنة ٨٥٢ هجرية / (١١ مايو ١٤٤٨) إلا أنه لم يذكر شيئاً عن طفولته، أو شبابه، أو مسيرة حياته أو ذكر لزوجته أو أولاده ونفسر ذلك أنه ربما لم يتزوج أصلا، أو لم يجد مناسبة لذكر زوجته وأولاده. وكان لابن إياس، إقطاع يدرّ عليه دخلاً وفيراً يكفي لإعالة أربعة مماليك. وقد وفّر له هذا الدخل الوقت الكافي للانصراف إلى القراءة، والاطلاع والتأليف، من دون أن يحمل همّ معاشه. ويشير إلى أنه فقد هذا الإقطاع، حين عمل السلطان قانصوه الغوري في جمادى الآخرة ٩١٤هـ/تشرين الأول ١٥٠٨م، على إخراج إقطاعات أولاد الناس من أجناد الحلقة، والإنعام بها على المماليك. إلا أنه استرد هذا الإقطاع بعد أن تظلم للسلطان، فامتدحه بقصيدة[٣] أرسلها إليه عن طريق أحد خواصه. **أما عن شيوخه** لا يُعرف عن شيوخ ابن إياس سوى: الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر بن حسن بن عمران بن نجيب المعروف بالقادري[٤]، والشيخ جلال الدين السيوطي[٥]، والعلامة زين الدين عبد الباسط بن الغرسي خليل شاهين الصفوي الحنفي[٦] . **أما عن أصحابه**[٧] فهم حسبما وجدناهم في كتاب بدائع الزهور من خلال ذكر ابن اياس لسيرهم الذاتية بعد وفاتهم : أبو الفضل[٨]– (متحدثا في نظر المواريث) ، كمال الدين بن قوسان[٩] ،الناصري محمد بن الأشقر،[١٠] (شيخ الشيوخ بخانقة

سرياقوس) ، القاضي رضي الدين الحلبي (الموقع) ، القاضي أبو الفتح السراجي[١١] (أحد نواب الحنفية) ، الناصري محمد بن منكلي بغا[١٢] ، الشيخ بدر الدين محمد بن محمد الزيتوني،[١٣] (أحد نواب الشافعة) ، الشرفي يحيى بن الناصري محمد الازبكي[١٤] (لفاف السلطان الغوري) ، القاضي محب بن أصيل[١٥](من ذوي البيوت) ، تقي الدين محمود (أحد أعيان الشهود بالمدرسة الصالحية[١٦]) .بعد الاطلاع على أصحاب هذه الترجمات نجدهم من ذوي المكانة العالية القريبة من اتخاذ القرار. وهذا يجعلنا نقول إن ابن اياس على الرغم من عدم توليه لأي منصب، كان قريب من أصحاب القرار في العصر المملوكي وهذا لا يعني أن هؤلاء هم فقط أصحاب ابن اياس فربما أن هؤلاء بعض المشهورين، وأنه يوجد من هو أقرب منهم للسلطة، ولكن ربما يكون ابن اياس قد توفي قبلهم، لذلك لم نر سيرهم الذاتية بعد الوفاة. وقد اتجه ابن اياس إلى التاريخ لأنه كان على ما يبدو المركب الأسهل الخالي من ضرورات الإسناد، كالحديث وتعقيدات الفقه وقسوة اللغة وصعوبة فهم أسرارها، فمن الممكن ولوج باب التاريخ بأبسط من هذا وذاك من العدة، وذلك برصد الأحداث وتسجيلها المتسلسل، وهذا العمل في معظمه لا يكاد يحتاج إلى إعداد علمي مسبق يجاوز صوغ الجملة السليمة والصلة بمصادر الأخبار.

ويستخلص من المعلومات التي أوردها في مؤلَّفه بدائع الزهور، أنه كان على اطلاع واسع على علوم عصره وعلمائه، وأدبائه، ومتصوفيه. فقد ترجم كثيراً منهم، ومن السابقين لعصره، وأوضح مختلف المعارف التي كانوا يجيدونها، والمؤلفات التي صنفوها. وكان على معرفة بعلم الفلك، والهيئة، والجغرافية، بدليل خوضه في طرف يسير منها في كتابه نشق الأزهار في عجائب الأقطار، كما كان مطلعاً على عدد كبير من الكتب التاريخية وعارفاً بمؤلفيها.

أولا: كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور

ترك ابن إياس سبع مؤلَّفات١٧ حسبما وصل إلى علم الباحثين حتى اليوم، وكلها ذات طبيعة تاريخية. كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور هو أهم مؤلفات ابن اياس.

وتجدر الإشارة هنا الى أن تقسيم كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور، الذي هو من تحقيق محمد مصطفى، يختلف تماما عن تقسيم ابن اياس للكتاب، فقد قسم محمد مصطفى كتاب بدائع الزهور الى خمسة أجزاء، يتضمن الجزء الأول مجلدين، أما ابن اياس فقد قام بتقسيم الكتاب إلى اثنا عشر جزء. من المتعارف عليه أن الأجزاء الثلاثة الأولى من بدائع الزهور، بالإضافة إلى الجزء الثاني عشر، تعتبر من الأجزاء الضائعة[١٨]، لكن في السنوات الأخيرة قامت دراسات مهمة في فرنسا[١٩] على كتاب بدائع الزهور، استطاعت التأكيد على وجود هذه الأجزاء، والعثور على مخطوطات ترجح بشكل قوي، أن تكون هي الأجزاء الضائعة من كتاب بدائع الزهور، واستطاعت أيضا هذه الدراسات للوصول إلى التقسيم الذي اعتمده ابن اياس لكتابه.

اعتمد ابن اياس في تدوين الوقائع التاريخية على الربط بين العهود والحوليات، ولو فصلنا أكثر في محتويات البدائع لوجدنا أن ابن اياس قد تتبع في تلك الحوليات أحداث مصر المتنوعة: من مناخية، وسياسية داخلية وخارجية، وإدارية، واقتصادية، واجتماعية، وعمرانية، وفكرية، تتبعاً تفصيلياً دقيقاً. دون أي تمييز لناحية خاصة منها، سواء عنده أن يكتب عن ولاية الحكام والخلفاء ووفاتهم، أو خلعهم وما يصحب ذلك من ثورات داخلية وطغيان المماليك، أو عن النظم الإدارية والحربية، وما بقي منها من القديم وما تجدد وما الغي منها، أو عدل، أو أن يكتب عن الحياة العامة والحالة الاجتماعية والأعياد والمراسم والحفلات الشعبية ومواكب الخلفاء السلاطين، واستقبال سفراء الدول الأخرى، وما يرتبط بذلك من خلع وهدايا ورسائل ،أو الحالة الاقتصادية وأسعار المحاصيل والمسكوكات من الذهب والفضة والنحاس، أو ما ابتليت به البلاد من أوبئة وأمراض، وتعداد من توفي أثناء مثل هذه الأوبئة، أو الأرصاد الجوية من خسوف القمر وكسوف الشمس، وثورة العواصف، وسقوط الأمطار والبرد والثلج، أو مناسيب النيل في زمن الفيضان والتحاريق، أو ما أنشئ من مبان وعمائر ومساجد وربوع وقباب ومدافن، أو أخبار العلماء والأدباء والشعراء والأعيان، وتراجم من توفي منهم يوردها في حينها وفي مكانها بين كل تلك الأخبار أو في نهاية كل سنة . يكتب عن كل هذا باختصار وعزوف عن الإطالة والإطناب، وضم إلى

أخبار مصر كثيراً من أخبار العالم الإسلامي المهمة، في المشرق حتى الهند، وفي المغرب حتى الأندلس، وأحاط بأحوال الشام والحجاز، وكان في المرحلة التي عاصرها، دقيق الملاحظة، شديد الاستقصاء للحقائق، وناقدا، فلم يبخل بأحكامه حتى القاسية منها أحياناً على ما كان يجري، ودون مواربة أو محاباة.

ثانيا: الأشعار في بدائع الزهور في وقائع الدهور

كثيرا ما استعان ابن اياس بأشعاره أو أشعار غيره من شعراء ذلك العصر للتعبير عن الانفعالات التي كانت تتولد في أعماقه بسبب حالة سياسية أو اجتماعية معينة، لذا نرى بدائع الزهور طافحا بالكثير من الأبيات والمقطعات الشعرية، فهو يبدو من خلال أشعاره أنه عاش فردا متتبعا عن كثب حوادث المجتمع الذي تقلب فيه وليس ذلك بصفته مؤرخا معنيا بتدوين الوقائع والأخبار فقط، بل لأنه كان إنسانا يتأثر بما حوله وبما كان يجري في دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال. وهذه الأشعار التي نظمها ابن اياس أو اقتبسها عن شعراء معاصرين تصلح كمصدر مهم يفيد مؤرخي الأدب، كما تفيد الباحثين في تاريخ مصر المملوكية من وجوه كثيرة.

بدائع الزهور هو أحد أهم المصادر التي احتل فيها الشعر مكانة كبيرة في سرد الأحداث .أحصينا أكثر من ألفين ٢٠٠٠ بيت شعر في هذا الكتاب تم إدراجها في سرد أحداث سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها من الاحداث التاريخية. ونستطيع تقسيم هذه الأشعار حسب مصدرها إلى:

١ ـ **الأشعار التي تم الإشارة إلى ناظمها بشكل صريح:** لقد أحصينا في البدائع ٦٧ مصدر(شخص) للشعر (مؤرخون، شعراء، رجال دين، وغيرهم)، بعضهما أخذ من شعره مرة واحدة والبعض الآخر عدة مرات .وأهمهم: ناصر الدين محمد بن قانصوه من صادق، الشهاب المنصوري، شهاب الدين أحمد بن العطار المصري، بدر الدين محمد بن الزيتوني، شهاب الدين بن أبي حجة، شمس الدين القادري .

٢ ـ **الأشعار التي لم يتم الإشارة إلى ناظمها وبقي ناظمها مجهولا:** في هذه الحالة، استخدم ابن إياس عبارات مثل: كما قال الشاعر أو كما قيل.

٣ ـ أشعار من نظم ابن إياس نفسه: أحصينا ٥٢١ بيت من الشعر في كامل الكتاب، يحتل الشعر مكانة مهمة في نشأة ابن إياس وحياته، في الواقع، تأثر ابن اياس بمجالات تخصص أساتذته، التاريخ بشكل أساسي والشعر بدرجة أقل. وبشكل عام، فإن معظم المؤرخين في العصر المملوكي كتبوا الشعر، لكن لم يتفوقوا جميعهم في هذا المجال. قمنا بإعداد بحث عن الأشعار التي من نظم ابن اياس وسيتم نشره قريبا في إحدى المجلات العلمية المحكمة.

ثالثا: ثلاثة عشر بيت شعر تلخص هدف ابن اياس من كتابة بدائع الزهور في وقائع الدهور وتبين محتواه

اتبع المؤرخون المماليك تقليدا في بداية تأليف كتبهم التاريخية، وهو ما أسموه الرؤوس الثمانية والتي تتضمن: هدفهم من كتابة الكتاب، وعنوانه، وفائدته، ومكانته العلمية، صحته، اختصاصه العلمي، عدد الأجزاء، والمصادر.

كتب ابن اياس ثلاثة عشر بيت من الشعر كانت ضمن مقدمات الأجزاء أو في نهايتها أو بداية حكم سلطان وكانت تأكيد على ما يقوله في المقدمة أو الخاتمة، والتي كانت تخص الهدف من تأليف هذا الكتاب. كان ابن اياس يقدم لهذا الشعر من خلال قوله (أقول، وقد قلت) ويأتي الشعر في وسط المقدمة أو في آخرها.

كتب ابن اياس مقدمته للجزء الرابع، وقد وبدت وكأنها مقدمة للكتاب كله وذكر فيها هدفه من تأليف هذا الكتاب، وهو أن يكون هذا الكتاب لتاريخ مصر من أقدم العصور حتى سنة ٩٠١ هجرية، ومن تعاقب على حكم مصر منذ أقدم العصور، وترجم قوله هذا ببيتن من الشعر ليؤكد من خلالهما ما قاله، فيؤكد أن هذا الكتاب من مبتدأ العصور يعني أول الخليقة ويخبر عما جرى في هذه العصور من عجائب. يقول ابن اياس٢٠:

طالع كتابي إن أردت مخبرا عن مبتدأ خبر الدهور بما جرى

فتراه كالمرآة تنظر فعل ما أبدى الزمان عجائبا بين الورى

نستخلص من هذين البيتين هدفين أساسيين ذكرهما ابن اياس:

١ ـ هو كتابة تاريخه منذ بدء الخليقة وتقسيم الكتاب حسب العهود والحوليات.

من المعروف أن الكثير من المؤرخين العرب ألفوا كتبهم من بداية الخليقة، وصولا إلى العصر الذي عاشوا فيه. بالعودة إلى ما دونه ابن اياس في كتاب بدائع الزهور، نجد أنه بالفعل بدء كتابه بالحديث عمن حكم مصر منذ بدء الخليقة: العمالقة والاغريق والفراعنة والأقباط وغيرهم ثم يذكر من حكمها من الصحابة والتابعين في صدر الإسلام، ثم من حكم مصر من الاخشيديين والعبيديين والفاطميين، والأيوبيين، ومن السلاطين الأتراك والشراكسة والعثمانيين حتى سنة ٩٢٨ هجرية.

نستطيع أن نقسم تنظيم ابن اياس للبدائع إلى قسمين:

القسم الأول: يتضمن أخبار مصر وما ورد عنها في القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبوية، وأقوال العلماء والشعراء في أخبارها، والتقسيم الجغرافي للبلاد، وغير ذلك من أخبار وقصص متنوعة. ثم يبدأ ابن اياس بعد ذلك في ذكر أخبار الدول والأسرات التي حكمت مصر منذ قديم الزمان، من الفراعنة والأقباط وغيرهم. فهو بذلك قريب جدا من منهج المؤرخين السابقين مثل السيوطي في كتابه حسن المحاضرة، والمقريزي في كتابه الخطط، أي لا جديد في منهج ابن اياس في هذا الجزء.

القسم الثاني: يبدأ بقيام دولة الإسلام وفتح عمرو بن العاص لمصر. هنا بدأ ابن اياس كتابة كتابه على التاريخ الحولي من سنة ٢١ هجرية، حيث يقول (ثم دخلت سنة إحدى وعشرين من الهجرة) وهذا أمر طبيعي على اعتبار أن ابن اياس بدأ بتخصيص كتابه لمصر، ويريد الحديث عن أحداث مصر سنة بسنة، وأراد أن تكون البداية مع بداية الحكم الإسلامي لمصر. وهو بذلك لم يأتي بجديد في هذا المنهج فمعظم مؤرخي الحوليات الذين تحدثوا عن تاريخ مصر ساروا على هذا النهج من سنة ٢٠ أو ٢١ هجرية. لكن بنفس الوقت تقريبا، وفي سنة ٢٥ هجرية ظهرت طريقة أخرى لتنظيم الكتاب، هي طريقة التأريخ حسب الولاة الذين حكموا مصر، وبدأ ذلك مع ولاية عبد الله بن سعد بن أبي السرح بن الحارث القرشي العامري[٢١] ، واستمر ابن اياس في طريقته بالتأريخ حسب السنين وحسب الولاة الذين حكموا مصر من قبل الخلفاء الراشدين والأمويين ثم العباسيين والدولة الطولونية والإخشيدية

والفاطمية والأيوبية ودولة المماليك الأولى والثانية، وحتى الولاة الذين حكموا مصر من العثمانيين.

صحيح أن ابن اياس استمر في التأريخ على طريقة الحوليات وطريقة التأريخ حسب الولاة والسلاطين حتى نهاية الكتاب. لكن بدائع الزهور من سنة ٢٥ هجرية (بداية ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث القرشي العامري) إلى سنة ٧٦٢ التي توافق سلطنة الملك المنصور صلاح الدين محمد ابن الملك المظفر حاجي ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون، يعتبر برأينا كتاب تاريخ حسب الولاة والسلاطين ، أو ما يسمى بالأسر الحاكمة، أكثر منه تاريخ حسب السنين أو الحوليات، لأنه بدا واضحا كتابة ابن اياس للأحداث حسب سنوات حكم كل والي ،كأن يقول :(وفي السنة الأولى من ولاية فلان توفي فلان) أو(وفي السنة الثانية من ولاية فلان حدث كذا) .على عكس الطريقة الحولية التي تقول:(وفيها حدث كذا) أو(في شهر كذا من سنة كذا حدث كذا).بالإضافة إلى أن ابن اياس في هذه الفترة أهمل العديد من السنوات دون الإشارة إلى أي منها وهذا واضح للعيان خاصة في فترة الولاة الراشدين والأمويين والعباسيين، ويقل إهمال ابن اياس للسنوات كلما اقتربنا من سنة ٧٦٢ هجرية ،حيث يظهر لنا كتاب بدائع الزهور بعد هذه السنة كتاب حوليات أكثر منه كتاب تاريخ حسب الولاة والحكام مع وجود الطريقتين معا. لكن تتميز الفترة من سنة ٧٦٢ هجرية إلى نهاية الكتاب ببدء ظهور طريقة التأريخ شهرا بشهر في الأجزاء التي لم يعاصرها، ويندر أن نجد من بعد سنة ٧٦٢ هجرية أن يمر أي شهر دون ذكر حادثة تاريخية أو وفاة شخص، في بداية سنة ٩٠٦ بدأ يسير ابن اياس بتدوين الأحداث باليوم والشهر لبعض الأحداث، وأصبحت هذه الطريقة واضحة في تاريخه[٢٢] .أما في بداية سنة ٩٢٠ أصبحت هذه الطريقة أساسية. لكن هذا لا يعني عدم وجود حالات قليلة دون فيها ابن اياس بعض الأحداث المهمة باليوم والشهر.

لكن هل طريقة ابن اياس هذه في تنظيم البدائع جديدة؟ بالتأكيد أنها طريقة غير جديدة ومعروفة ليس فقط عند المؤرخين المصريين بل عند المؤرخين العرب. الربط بين العهود والحوليات، هذه الطريقة في التدوين عند ابن اياس، سبقه إليها ابن الجوزي في كتابه

(المنتظم في تاريخ الأمم). فكان يكتب عهد كل خليفة وسلطان والسنة التي تولى فيها الخلافة أو السلطنة تحت عنوان (خلافة فلان) أو (سلطنة فلان) ثم يستمر في حولياته. فابن اياس إذا قد جمع بين طريقة اليعقوبي القائمة على العهود والطبري القائمة على الحوليات. أو بين أسلوب المقريزي (الذي التزم بترتيب الحوادث بترتيب السنوات) وأسلوب ابن تغري بردي الذي قسم الأحداث حسب عهود الحكام)، فنجد أن ابن اياس قسّم كتابه بدائع الزهور إلى عهود مستقلة كما فعل ابن تغري بردي، وأورد السنين كما فعل المقريزي. وهذا التداخل بين مناهج التأليف المختلفة تعتبر أبرز ملامح العمل التاريخي في العصر المملوكي، أي ليس لابن اياس الفضل في ابتكاره.

٢ ـ هو تدوين الغرائب والعجائب.

المؤرخ الجيد في نظر ابن إياس، هو الذي يأتي بالعديد من الحقائق الفريدة النادرة، في الواقع، تحتل الوقائع الغريبة مادة مهمة في كتاب بدائع الزهور، وقد استعمل ابن اياس بعض العبارات لوصف هذه الوقائع مثل قوله: (من النوادر)، وكانت هي الأكثر استعمالا على الإطلاق، (من النوادر الغريبة)، (حادثة غريبة)، (من أعاجيب الزمان)، (نادرة غريبة)،(ظهرت أعجوبة)، (أعجوبة من العجائب)،(أعجوبة غريبة) (واقعة غريبة)، (من الغرائب)، (أمر عجيب)، (غرائب الاتفاق). كان ابن إياس مراقبًا دقيق للأحداث العالمية، ينجذب إلى كل ما هو مختلف عن الواقع، فكانت أكثر هذه النوادر هي النوادر التي (تتعلق بالسلاطين، النيل، النوادر الخلقية، الظواهر الطبيعية، وغيرها). ونستطيع تقسيم هذه الوقائع أو الاخبار النادرة أو العجيبة الى ما يلي:

١ ـ نوادر تتعلق بالسلاطين

اهتم ابن اياس اهتماما كبيرا بالسلاطين المماليك وأفعالهم، فهو بذلك مثله مثل غيره من المؤرخين في العصر المملوكي الذين خصصوا الجانب الأكبر للنواحي السياسية وأخبار السلاطين، وجانب أقل للجوانب الاجتماعية والاقتصادية، فاهتمام ابن اياس بأحوال هؤلاء السلاطين، وكان قادرا على تمييز ما هو جديد أو مبتدع من تصرفاتهم وما هو تقليد، لذلك نرى عنده جزء هام من النوادر والغرائب والعجائب التي خصصها للسلاطين.

٢ – النيل

نوادر النيل تخص معدل الزيادة أو النقص في منسوب النيل ومقدارها، ومخالفتها للوضع الطبيعي الذي ألفه الناس فكانت النوادر تتعلق بما يلي: الزيادات الكبيرة للنيل في يوم واحد[٢٣]، وقت وفاء النيل[٢٤]، وقت يوم الوفاء ويوم الكسر[٢٥]، زيادات النيل في غير وقته[٢٦]،زياداته بعد الوفاء[٢٧]، الزيادة أو النقص في قاعدة النيل[٢٨].

٣ – نوادر الخلقة

نقسم العجائب الخلقية عند ابن اياس نوعان: عجائب للإنسان وعجائب للحيوان أما عن عجائب الإنسان فهي نوعان: الأول يتعلق بعجائب الجنس الثالث مثال فتاة لها عضو ذكري[٢٩] ، الثاني حول ولادات لمواليد غير عادية مثل طفلة برأسان ووجهان وعنق واحد[٣٠]. أما عن عجائب الحيوان فكانت تتعلق بالناحية الخلقية بشكل أساسي مثال ولادة عجل برأسين[٣١] .

٤ . نوادر طبيعية كنوادر المطر وهي الأكثر

إما أن يكون المطر في غير وقته،[٣٢] أو أن يكون المطر على غير المعتاد من حيث توقيته[٣٣] ،قوة هذا المطر[٣٤] والرياح المرافقة له[٣٥]، والبرد وما تحدثه من أضرار[٣٦] .أيضا نوادر الكسوف والخسوف مثال على ذلك أنه لم يفصل بين الخسوف والكسوف سوى ١٥ يوم[٣٧].

٥ – طاعون أو أمراض

ليس النادر في وقوع الطاعون أو الأمراض لكن النادر ما يلي:

وقوع الطاعون ببلاد الصعيد قبل أن يدخل مصر[٣٨]، وقوع وباء بأرض الحجاز بالطائف وبجبلة[٣٩]،وقوع الطاعون في سنتين متواليتين[٤٠].

٦– توافق بين التواريخ مثل: توافق عيد الفطر للمسلمين وعيد ميكائيل للقبط وكان ذلك في يوم واحد[٤١] . **أو** توافق يوم النوروز عند القبط وعيد الفطر عند المسلمين بيوم واحد[٤٢] .

٧ – نوادر الأسعار

تتعلق هذه النوادر حول ارتفاع أو انخفاض بعض المواد الغذائية مثل البرسيم[٤٣] ، القمح[٤٤] ، البصل[٤٥] ،الخبز[٤٦] ، الأرز[٤٧] ، الأضحية[٤٨] (البقر، الغنم). ذكر ابن اياس القيمة التي وصلتها هذه المواد سواء أكانت بالزيادة أو النقص مع تفسير لسبب الزيادة أو النقص بقيمة هذه المواد.

٨– غرائب وفيات

مثال على ذلك، جماعة من المماليك ماتوا بالطاعون وقد ظهر ذلك بدارهم فقط[٤٩]. أيضا وهو أن شخصا كان له أربعة أولاد من الذكور وقد سلموا من الطعن (الطاعون) ختنهم ماتوا الأربعة[٥٠].

٩– نوادر الجرائم

مثال على ذلك جارية رمت ابن ستها من الطاق فغرق ومات[٥١] .أيضا جماعة ينبشون على الأموات الجدد يبيعون اللحم للإفرنج[٥٢].

١٠– نوادر الإشاعات مثال على ذلك أشيع بين الناس أن رودس قد فتحت على يد المسلمين[٥٣] .أيضا أشيع في القاهرة بين الناس أن الشهابي أحمد بن الجيعان قد شنق نفسه[٥٤].

١١ ـ الاحتفالات أو الفرجة مثال احتفالا بختان أولاد القاضي كاتب السر ابن مزهر[٥٥]. زفة دخول قانصوه خمسمائة على ابنة الاتابكي ازبك[٥٦] .

وغيرها من النوادر كنوادر التعيين في الوظائف ونوادر تغيير الزي (مخالفة العادة) ونوادر جمع الأموال.

اذا لم يختلف ابن اياس عن المؤرخين المماليك في طريقة تقديمه للغرائب والعجائب، فبالإضافة إلى ما ذكرناه من طريقة ابن اياس في التقديم للعجائب كان هنالك عبارات مستخدمة عند هؤلاء المؤرخين مثل (حادثة غريبة) ، (هذا شيء لم يعهد مثله) ، (شاهدث في هذه الأيام أعاجيب) ، (والعجيب) ، (من غريب الاتفاق) ، (كان أمره من الغرائب) ، (من الغريب) ، (من نوادر الخلفاء).لكن الاختلاف بين ابن اياس وغيره من

المؤرخين كانت تأتي حسب اهتمام كل منهم، فبينما كانت الغرائب التي تتعلق بالعجائب الخلقية والطواعين والنيل قاسم مشترك بين معظم هؤلاء المؤرخين، نجد بالمقابل فرق بين اهتمامات ابن اياس وغيره من المؤرخين من حيث تدوين هذه الغرائب، أو حتى الحكم على هذه الحوادث ليظهر أنها من العجائب .صحيح أن معظم هذه الغرائب أخذها ابن اياس من المصادر المملوكية، لكن ما يميز ما كتبه ابن اياس، هو محاولة تجميع معظم ما كتب في هذه المصادر .

ابن اياس راصد دقيق لشؤون العالم فكل ما هو مخالف للواقع يثير حفيظته، سواء أكان ذلك يخص الإنسان أو الحيوان أو الطبيعة أو حتى العادات والتقاليد والأخلاق. لم تكن هذه الغرائب على سوية واحدة من الأهمية بحيث تثير الدهشة أو الاستغراب، فبعضها بدى وكأنه خبر عادي وحتى مؤرخي المماليك لم يبدو له كثير اهتمام. يظهر ذلك دقة الملاحظة عند ابن اياس حتى على صغائر الأمور. من خلال هذه الغرائب والعجائب التي يذكرها ابن اياس يتبين لنا اهتمام واضح وشديد بالسلاطين وأفعالهم واحتفالاتهم. وهو ليس بالشاذ عن غيره من المؤرخين المماليك، حيث حظي السلاطين وأخبارهم الجزء الأعظم من كتابات المؤرخين. لكن من خلال ما كان يصفه ابن اياس بالغرائب والعجائب يسمح لنا بالاطلاع على بعض جوانب فكر ابن اياس، والتي نصيغها على الشكل التالي:

- المراقبة الدقيقة لأفعال السلاطين ومقارنتها مع السابقين، إعابته على بعض السلاطين القيام ببعض التصرفات الساذجة تظهر أن لدى ابن اياس معايير محددة لميزات يجب أن يتمتع بها، بالمقابل تواضع بعض السلاطين كان سلوك محمود عند ابن اياس، لكن بنفس الوقت يثير استغرابه السلوك الحسن من السلاطين في العصر المملوكي.
- اهتمام كبير من ابن اياس بالعادات والتقاليد السلطانية وحبه لها وعدم رغبة في تغييرها من خلال إظهاره الأسف على تلك العادات، وترحيبه بما نستطيع أن نسميه عادات حسنة وإلغاء عادات سيئة، مع تركيزه على وجوب الأخذ بالعبرة، ويظهر ذلك من خلال تعليقاته على هذه الأفعال، وتظهر تلك الغرائب أن ابن اياس على معرفة بعادات وتقاليد الجيش في السلم والحرب.

ـ ولا تخلو هذه الغرائب من انتقاد للسلاطين بسبب بعض التعيينات في بعض الوظائف المهمة، فطريقة التعيين في الوظائف والأشخاص المعينين في هذه الوظائف كانت من الغرائب عند ابن اياس، ويدل على استياء ابن اياس على هذا الوضع لعدم توفر مبدأ الكفاءة في الأشخاص المعينين. والتقاليد التي يجب إتباعها بالتنقل من وظيفة إلى أخرى، من حيث عدم الجمع بين وظيفتين، والمدة الزمنية التي يجب أن يقضيها أحد ما في وظيفة ما للانتقال إلى وظيفة أعلى، وارتفاع آخرون إلى وظائف عالية لم يكن يحلمون بها والعكس. أو حتى فيما يتعلق باستحداث وظيفة جديدة لم يسمع بها من قبل، وطريقة لباس بعض الموظفين، كل ذلك كان يثير استغرابه لدرجة أنه صنفها من العجائب، وعزا ابن اياس وصول هؤلاء الأشخاص إلى الوظائف إلى الحظ.

وفي بداية كلامه عن الدولة الشركسية، ينظم ابن إياس هذا البيت من الشعر :

حسن ابتداع به ارجو التخلص من نار الجحيم وهدا حسن مختتمي

من خلال هذا البيت من الشعر، يضع ابن إياس لنفسه هدفًا دينيًا واضحًا في كتابته للتاريخ، ألا وهو التقرب من الله وطلب العفو منه، وهذا الفكر الديني موجود عند ابن إياس وعند معظم المؤرخين المماليك الذين غالبًا ما كانت كتاباتهم ذات غرض ديني، ويظهر التحليل الدقيق للوقائع والأحداث التاريخية في بدائع الزهور، أن ابن إياس يقدم تفسيرات دينية للأحداث أكثر من التفسيرات العلمية . وسنتوسع في ذلك لاحقا.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو لماذا اختار ابن إياس أن يضع هذا البيت الشعري في بداية حديثه عن الدولة الشركسية وليس في مقدمة كتابه؟

كتابة تاريخ مصر منذ بداية الخليقة، كان كمقدمة لما سيأتي لاحقا، أي تدوين تاريخ المماليك، وبشكل أدق وأكثر تفصيلا الأحداث التي عاشها ابن اياس بنفس، حيث ستحتل الفترة المعاصرة من حياة المؤرخ الجزء الأكبر، وبالتالي فان الغرض من بدائع الزهور كان نقل الوقائع المتعلقة بمنطقة معينة هي مصر وتاريخ دولة معينة هي دولة المماليك.

ولذلك يتبنى ابن إياس خيار كتابة تاريخ مصر منذ بدء الخليقة حتى عام ١٥٢٢/٩٢٨ وحتى بعد ذلك، أي حتى تاريخ يسبق وفاته بقليل ـ بلا شك إذا أدخلنا الجزء

الثاني عشر الضائع من بدائع الزهور ــ وكانت المعلومات السابقة لسنة ٦٤٢/٢١ تهدف إلى مدح مصر وإظهار عظمتها .

ولا تأخذ العصور التي سبقت وصول المماليك لحكم مصر سوى حيز ٢٨٧ صفحة في الكتاب، وهو جزء قليل مقارنة بالفترتين المملوكية والعثمانية التي تشغل أكثر من ٣٠٠٠ صفحة، وإذا نظرنا عن كثب إلى العصر المملوكي في بدائع الزهور، نرى أن الفترة الأهم هي التي تبدأ بدولة الشراكسة.

لا يتوقف ابن إياس في تدويناته عن اظهار اهتمامه الكبير بالدولة الشركسية التي ينتمي إليها، وهو ما لم يعبر عنه بخصوص الدول الأخرى، وفي هذا الإطار، تعمق في بحثه حول أصول هذه السلالة وأجدادهم ونسبهم، حتى أنه استشهد بقصيدة طويلة لناصر الدين محمد من صادق، مؤلفة من ٤٤ بيتا من الشعر عن أصل الشراكسة، وكان يفتخر بأنهم من نسل جبلة بن الأيهم أحد ملوك العرب، بالرغم من أنه هرب ولجأ إلى القسطنطينية، كما بدأ حديثه عن الشراكسة بعبارة جميلة، أثنى فيها على ملوك الشركسة وأمراءهم وجنودهم بقوله: أعز الله بهم الإسلام بعد الخلفاء الراشدين، ثم شكر ابن إياس الله أن السلطان برقوق كان شركسيا.

وفي نهاية الجزء العاشر كتب ابن إياس البيتين التاليين من الشعر :

عول على كتب التاريخ وإغني بها فكم تهز لها الاعطاف من طربي

ولا تعول على من قال من سفه السيف أصدق إنباء من الكتب

يمكن استخلاص ثلاثة أهداف أساسية من هذين البيتين،

ـ القيمة المهمة لكتب التاريخ.

ـ كتب التاريخ تهدف للإفادة والامتاع.

ـ نقل وتدوين الاحداث الواقعية والحقيقية في كتب التاريخ.

ذكر ابن اياس الكثير من المؤرخين وسيرهم ومؤلفاتهم في كتابه بدائع الزهور، مما يدل على اهتمام ابن إياس بالكتب التاريخية ومعرفته الكبيرة بالمؤرخين، أراد ابن إياس أن يكون كتابه عملاً تعليميًا وممتعًا للقراءة والاستماع، لذا فإن الحكايات الممتعة (النكتة اللطيفة

كما يسميها ابن اياس)، والأخبار الغريبة و أخبار الأدب، وكذلك الاقتباسات الشعرية تحتل مكانًا مهم في بدائع الزهور ،و في هدا الاطار يقول ابن إياس في مقدمة بدائع الزهور: {الحمد لله الذي فاوت بين العباد و فضل بعض خلقه على بعض حتى في الأمكنة و البلاد و الصلاة و السلام على سيدنا محمد أفصح من نطق بالضاد و على اله و صحبه و السادة الامجد .....أوردت فيه فوائد سنية وغرائب مستعذبة مرضية تصلح لمسامرة الجليس و تكون للوحدة نعم الانيس } وبالتالي فإن الوقائع الغريبة أو العجيبة ،التي تثير الدهشة يجب أن تحتل مكانة مهمة في جذب انتباه القارئ أو المستمع.

بالنسبة لابن إياس، تحتوي كتب التاريخ على وقائع حقيقية، ولكن هل كان لابن إياس على ثقة تامة في كل كتب التاريخ؟ كان ابن إياس حريصًا في اختيار مصادره، ولم يكن يتردد في انتقاد المؤرخين وكتاباتهم في بدائع الزهور، بالنسبة لابن إياس، يتمثل عمل المؤرخ في تقديم معلومات دقيقة يمكن الوثوق بها، من خلال البحث عن الحقيقة من مصادر موثوقة والتحقق منها هذا ما يعبر عنه ابن إياس بقوله: "تحقّقت منه ".

ففيما يتعلق بالسلطان بيبرس على سبيل المثال، يقول ابن اياس: {وأخبار الملك الظاهر بيبرس كثيرة في عدة مجلدات والغالب فيها موضوع ليس له حقيقة، والذي أوردناه هنا هي الأخبار الصحيحة التي ذكرها العلماء من المؤرخين}.

لذلك نستطيع تقسيم مصادر ابن اياس إلى قسمين:

١ـ مصادر كتابية وهي تخص الفترة التي لم يعاصرها

٢ ـ ومصادر شفهية وهي تخص الفترة التي عاصرها

فيما يخص المصادر الكتابية للأحداث في الفترة التي لم يعاصرها ابن اياس، يرى أن المؤرخ الجيد هو من يتمتع بحسن المذاكرة كأن يقول: (كان حسن المذاكرة)، وأن يكون قادرا على تنظيم الأحداث وتنظيمها بشكل جيد كأن يقول: (كان جيد النظم)، وأن ينقل الأحداث بأمانة دون تحيز كأن يقول: (وكان صحيح النقل، من ثقات المؤرخين)، وأن يأتي بالأخبار المميزة الغريبة والنادرة كأن يقول: كان يأتي بالعديد من الأخبار الفريدة، أو كان كثير النوادر)، بالمقابل، فإن المؤرخ الغير جيد هو (الذي يكتب التاريخ مجازفة لا عن راوي ولا

ناقل)، والذي ينقل قصته بطريقة غير منظمة كأن يقول: (في تاريخه خبطات كثيرة)، أو الذي يأتي بالعديد من الروايات والأخبار السيئة عن الناس كان يقول: (في تاريخه مساوئ كثيرة للناس).

أما عن مصادر ابن اياس في الفترة التي عاصرها:

فقد كان ابن إياس شديد الحرص على مصداقية مصادره، من خلال التعليقات القليلة عند ابن اياس على مصادره نجد أنه، كان حذرا جدا في نقل وتدوين الأخبار.

واعتمد ابن اياس على أشخاص لديه الثقة المطلقة برواياته. فهو يدون ما ينقلوه له دون أي تردد مع أن الأخبار تبدو غريبة جدا والمثال على ذلك قوله (أخبرني من أثق به[٥٧]) ثم يذكر صفات شخص غريب الشكل.

وأشخاص لديه الثقة بهم لكنه يعلق في نهاية الخبر بقوله (وهذا ما نقل ولم التزم صحة ذلك). ابن اياس كان مدركا أن ليس كل ما يقال صحيح، فهو واعيا لطبيعة المجتمع المصري في عصره، ويعرف كيف يتعامل مع الأخبار، ويدل على ذلك قوله: (وأهل مصر ما يطاقون من ألسنتهم إذا أطلقوها في حق الناس[٥٨]) . وقوله أيضا: (وقد كثر القال والقيل في هذه الأيام حتى خرج عن الحد وصار لا يعرف الكذب من الصدق في صحة الأخبار[٥٩]). لذلك حاول جهده للتحقق من الخبر قبل تدوينه، ودليلنا على ذلك قوله حول من توفي في إحدى المعارك (وأما من قتل في هذه المعركة من الأمراء وأعيان الناس فالذي يحضرني من ذلك وتحققته[٦٠]). بسبب انتشار ظاهرة الكذب في الناس في ذلك العصر وأصبح غالب الناس يخترعون القصص الكاذبة، ويذيعونها في المجتمع ثم يقومون ليس بإبطال هذه القصص وحسب بل حتى نقضها، ويخترعون غيرها، وكل ذلك كذب بكذب هذا ما وصف به ابن اياس المجتمع المصري في تلك الفترة (فصار غالب أهل مصر في هذه الأيام يختلقون الكلام الكذب ويشيعونه بين الناس بما يختارونه ثم يبطلون ذلك الكلام وينقضونه ويأتون بكلام غيره والكل ليس له صحة وهو من جملة الكذب المختلق[٦١]).وأمام هذا الواقع المشحون بالكذب والتزوير وتزييف الأحداث، كان لدى ابن اياس خيارين :

أ- أما أن يذكر الأقوال والإشاعات المتداولة بين الناس ويبرئ نفسه مما جاء فيها من خلال قوله (ولم التزم صحة ذلك[٦٢])

ب – أو يشير إلى الحدث ولا يدخل بتفاصيله ويبرر عدم دخوله بالتفاصيل أنه لم يتحقق من صحة هذه المعلومات (لم أقف على صحة هذه المعلومات فلم أوردها هنا خوف الاعتراض علي في ذلك[٦٣]). وهذه العبارة الأخيرة تدل على مراقبة شديدة لكل ما يكتب في ذلك العصر، ونستدل على ذلك من خلال قول ابن اياس أن الناس اعترضوا عليه عندما مدح السلطان الغوري بعدة أبيات، قال في أحدها أن السلطان أظهر العدل في أيامه وأبطل الظلم[٦٤] .

وهذا أكبر دليل يجعلنا نثق بالمعلومات المقدمة من ابن اياس، لأنه كان يعرف حق المعرفة أنه مراقب فيما يقول ويكتب، ويزيد من ثقتنا برواياته عدم استلامه لأي وظيفة في الدولة لذلك لا نستطيع أن نطلق عليه صفة مؤرخ الدولة، أو المؤرخ الموالي للدولة.

لكن لنكون أكثر موضوعية نطلق السؤال التالي هل كان عدم قرب ابن اياس من السلاطين بإرادته؟ أم أنه لم يعرض عليه أي وظيفة؟ بمعنى آخر هل انعزاله عن الوظائف كان برغبة منه أم رغما عنه؟ صحيح أننا وجدنا بعض القصائد والأشعار التي كان يمدح بها بعض السلاطين،[٦٥] (مثال السلطان الغوري)، لكن بنفس الوقت نجد بعض الأشعار التي ينتقد بها هؤلاء السلاطين[٦٦] نفسهم، (السلطان الغوري). فهذا يدل على موضوعيه في إطلاق الإحكام، وخاصة من خلال التراجم التي قدمها للسلاطين عند الوفاة. ولا نخفي أننا استشفينا من بعض الحالات والمواقف محاولات من ابن اياس للتقرب من السلاطين.

لقد ظهرت روح النقد عند ابن اياس واضحة جلية، واستطاع ابن اياس أن يمارس النقد ممارسة حرة دون أي ضغط، وخاصة في الأحداث التي عاصرها، لذلك نراه نقد السلاطين والعلماء والأدباء وغيرهم.

– نقد الهيئة سواء أكان ذلك بالصفات الجسدية أو الشكلية كاللباس أو الحركات وغيره.

– نقد الأخلاق والصفات كأن يقول: كان من الأشرار أو سيء الخلق أو حسن الخلق أو كريما أو بخيلا...الخ

- نقد الرجل بدينه كان يقول: قليل الدين، عليه مأخذ في دينه .... الخ
- نقد القدرات العلمية: أهتم ابن اياس بذكر النقائص العلمية التي تعيب الشخص له، كان يقول ليس ماهرا في العلم، أو جاهلا بالفقه ..... الخ
- نقد السيرة المهنية: أعطى ابن اياس حكما على السلاطين والأمراء وجميع أرباب الإدارة المملوكية مقاييس مختلفة، لكن نجد أن هنالك عبارات أساسية كانت كثيرة الاستعمال منها كقوله: كان حليما جواد، حسن السيرة في الرعايا .... الخ أما بالنسبة للأمراء والولاة والسلاطين وأصحاب الوظائف بشكل عام فكانت أكثر العبارات استعمالا عنده: كان ظالما غشوما، كان متسلطا إلى أموال الناس، كان من خيار الولاة وأعفهم، أحسنهم سيرة.
- نقد الورع والعفة والنزاهة: راعى ابن اياس هذه الصفات وخاصة في متولي الوظائف المختلفة كأن يقول: (قليل المبالاة بأمر الدين)، (سيء المعاملة جدا أحمق)، (عفيفا نزيها).
- نقد العدل في أحكام الشرع كقوله كان عادلا في الأحكام، لم يكن عالما بالأحكام.

بالانتقال إلى بيت آخر من الشعر يقول ابن اياس فيه:

ولا تعول على من قال من سفه السيف أصدق إنباء من الكتب

من خلال هذا البيت من الشعر يناقض ابن إياس بشكل واضح قول الشاعر أبي تمام :

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ويظهر رأي ابن إياس المعاكس لبيت أبي تمام (ت بعد ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) أنه لا يؤيد العنف بل يؤيد الحوار من خلال المعرفة، وهذا يعكس الحس الإنساني لشخصيته التي ظهرت من خلال اختياره لوقائع كتاب بدائع الزهور، حيث نلاحظ بوضوح ميله للأخبار المتعلقة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية للسكان، أكثر من الأخبار المتعلقة بالحروب .

ذكر ابن إياس في مقدمة كلامه على حكم الأشرف قانصوه الغوري البيتين التاليين :

أصفى التاريخ حكى بسجعه الشحروري

فاق التواريخ بما أوردته للغوري

نستخلص من هذين البيتين ثلاث أفكار أساسية:

ـ كتاب البدائع ذو سرد واضح ومنظم، والأخبار المنقولة في البدائع مكتوبة بأسلوب نثري جميل.

ـ ويتميز كتاب بدائع الزهور عن غيره من كتب الحوليات بما نقلته عن أخبار السلطان الغوري.

ـ يمكن أن تدل عبارة "أصفى التاريخ" على فكرتين؛ إما أن يعني بها أخبار واضحة ومنظمة بشكل جيد أو أن تفهم على أنها أخبار تم التحقق من صحتها .

وضع ابن إياس لنفسه هدفا واضحا كما أوضح في مقدمته، وهو تأليف كتاب "ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل"، وهو مبدأ اعتمده أيضا في نقله لأحداث بدائع الزهور، وكذلك في كتابته للسير الذاتية للوفيات. غالبًا ما كان ابن إياس يختصر أحداث مهمة، ويكتفي بكتابة عبارة (ومختصر ذلك) أو (وقع أمور يطول شرحها).

ذكر ابن اياس في بدائع الزهور أنه طالع كتاب السيوطي در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة[٦٧] فراه قد طال، فأحب أن يذكر في البدائع جماعة من أعيان الصحابة ممن دخلوا مصر، وممن مات بها، واقتصر على ذلك خوف الإطالة، وفي مرات عدة، فضل ابن إياس تلخيص حقائق طويلة فكان يعرض كل التفاصيل حول حدث معين دفعة واحدة، وبذلك يتخلص من أحد مساوئ التاريخ الحولي الذي يجزئ الأحداث التاريخية. يصف ابن اياس من خلال عبارة "حكى بسجعه الشحروري" بدائع الزهور بأنه مكتوب بنثر جميل وغير معقد، ويقارن بين جمال لغة البدائع وغناء الشحرور.

فاق التواريخ بما أوردته للغوري

يجعل ابن إياس من خلال هذا البيت فترة حكم السلطان الغورى الفترة التي تميز كتابه، وبالعودة إلى محتوى كتاب بدائع الزهور، نجد أن حكم الغوري، وكذلك سيرة وفاته احتلا فعلا حيزا كبيرًا في كتابه، وما يفسر أيضًا هذه الأهمية الكبيرة التي حضيت بها هذه الفترة هو أن ابن إياس كان معاصرًا لها وشاهدًا على أحداثها، فكتب أحداثها بشكل دقيق وتفصيلي يوم بيوم وشهر بشهر.

في نهاية الجزء الحادي عشر كتب ابن إياس ستة أبيات غير متتالية :

اغفر لمنشئه واعفو عما جنى بالتهم
احسنت في ابتداء يا رب فأحسن ختامي

***

تاريخنا بهجة المجالس يطرب من لفظه المجالس
سماعه للورى سرور يشرح صدرا لكل عابس

***

الفته نعم الجليس ادا تغيرت البشر
يبقى على سنن الوفى ابدا ويقنع بالنظر

يظهر الغرض الديني لكتابة البدائع مرة أخرى من خلال البيتين الأولين، حيث يطلب ابن إياس الغفران من الله إذا أخطأ في كتابه، ويرجو حسن الخاتمة أي الدخول إلى الجنة. واضح أن ابن اياس إنسان حساس رقيق المشاعر، يكره الغدر والانتقام، متسامح مع أصحاب الديانات الأخرى، يعطي أفضلية للأمور الدينية على الأمور الدنيوية، ويقدر رجال الدين ويؤمن بوجود كرامات لهم. التدين يبدو وضعا جليا في كتابات ابن اياس، والإيمان بالقضاء والقدر، والتسليم بأن كل ما يحدث من وقائع وأحداث هي بإرادة الله، دون إعطاء أي تفسير علمي للأحداث، ونرى ذلك بوضوح من خلال إيمان ابن اياس بظاهرة الفأل.

ظاهرة الفأل موجودة في المصادر الملوكية، وأن ابن اياس أخذ بعضا منها، فيما يخص الأحداث التي لم يعاصرها، لكن اهتمامه بظاهرة الفأل وتدوينها، وتعليقاته عليها في الفترة التي عاصرها، تبعث بدلالات قوية على إيمانه بهذه الظاهرة.

ابن اياس في فكره هذا يعكس ثقافة المجتمع المصري في ذلك الوقت، حيث لم تظهر أي إشارة طبيعية حتى يفسرها المصريون بنذير خير أو شؤم، ونستطيع أن نفسر ذلك بانتشار ظاهرة اليأس من تغيير الواقع الذي يعيشونه، وبروز إيمان كبير بظاهرة التنجيم والأبراج في المجتمع المصري، يبدو أن ابن اياس مؤمن بظاهرة الفأل لكن ليس على طريقة التنجيم والأبراج، وإنما على طريقة التسليم بالقدر، ونستدل على ذلك من خلال تعليق ابن اياس على حادثة لم يصح فيها الفأل باستشهاده بالبيتين التاليين٦٨:

لا ترقب النجم في أمر تحاوله فالله يفل لا جدى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر فلا يضرك مريخ ولا زحل

أيضا التفسير الديني للأحداث ظاهر عند ابن اياس، من خلال تدوينه للظواهر الطبيعية، وإرجاع كل ما يتعلق بهذه الظواهر من أسباب ونتائج إلى إرادة الله وحكمته، وهي نذير لأمر قادم، فيجب الإنتهاء عن المعاصي والرجوع إلى الله. نأخذ مثالا على ذلك ما دونه ابن اياس، حول اعتقاد الناس وإيمانهم بالصلة بين الكسوف أو الخسوف وأحداث دنيوية، كزوال السلطان بشكل خاص،[٦٩] أو وقوع أهوال وحوادث وفتن، كما في كسوف سنة ٨٤٢ هجرية، ويبدو من خسوف سنة ٨٠١ وسنة ٩٢٥ هجرية أن ابن اياس نفسه يؤمن بهذا الاعتقاد، كقوله (وكان الأمر كذلك[٧٠] ، وجرى من الأهوال عقيب ذلك[٧١] ،ونسأل الله اللطف في أمر هذا الخسوف الثاني [٧٢]). وهذا الأمر يعكس بوضوح، تذمر الناس من بعض سلاطين تلك الحقبة، والحقد الشديد عليهم، فلا تلوح أمامهم ظاهرة، إلا ويتمنون معها زوال السلطان، كما في خسوفات سنوات ٨٠١ – ٨٢٤ – ٨٢٥ – ٨٩٢هجرية.

لو انتقلنا إلى هدف أخر لابن اياس وهو: كتابة قصة ممتعة ومفيدة ومقنعة، يريد مؤرخنا أن يكون كتابه خير رفيق للذين سيأتون من بعده، وأن يكون وفيا لقواعد الكتابة التاريخية، وصلبا في معناه ومضمونه .أراد ابن إياس أن يظل عمله في ذاكرة الأجيال القادمة، على الرغم من أنه وقع تجاهله لفترة طويلة، سواء خلال فترة حياته أو خلال القرون الثلاثة التي تلت مماته، فقد حقق ابن إياس هدفه لأن أعماله، وخاصة كتابه بدائع الزهور، يلقى اهتمام الباحثين والمختصين منذ نهاية القرن التاسع عشر . لذلك قامت دراسات كثيرة باللغة العربية واللغات الأجنبية حول ابن اياس وكتبه وخاصة كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور ومن أهم هذه الدراسات ما قام به كل من

Brockelmann Carl ، Lellouch, Benjamin ، Cahen Claude ، Espéronnier Maryta

وأكبر دليل على أهمية كتاب بدائع الزهور، هو إعادة تحقيقه وطبعه عدة مرات، ولا يكاد يكتب أي بحث حول التاريخ المملوكي، أو بداية الحكم العثماني بمصر، إلا ويكون كتاب بدائع الزهور مصدر أساسي. بالإضافة إلى ترجمة أجزاء مهمة من الكتاب للغات

الاجنبية نذكر منها ترجمة Sauvaget, Jean، Wasserstein, D. J، Wiet,Gaston,

إذا كل هذا الاهتمام يؤكد تحقيق حلم ابن اياس بأن يبقى ذكره عبر الأجيال من خلال كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور.

ويبقى أن نشير إلى أنه يمكن الربط بين البيت التالي الذي سبق ذكره لابن اياس:

ألفته نعمة الجليس إذا تغيرت البشر

وبيت أبي الطيب المتنبي (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م) :

أعز مكان في الدنيا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

خاتمة :

عبر ابن إياس عن أهدافه من كتابة كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور بوضوح، نثرا في مقدمات أو خاتمات بعض الأجزاء، وكثيراً ما أعاد عرض هذه الأهداف في نفس المقدمات أو الخاتمات على شكل أبيات شعرية، ثلاثة عشر بيت من الشعر استطعن أن يختزلن بوضوح هدف ابن اياس من كتابة كتابه، وهو أن يكتب كتابا يتناول تاريخ مصر منذ الخليقة حتى الفترة التي عاصرها ابن اياس ــ حتى قبيل وفاته ــ وأن يكون هذا الكتاب ليس طويلا، ولا قصيرا ، و ويؤرخ لكل الأسر التي حكمت مصر منذ العصور القديمة، حتى عصر ابن اياس، وأن يكون هذا الكتاب ذو نظم جميل ولغة سهلة بسيطة، يدون من خلالها الوقائع الغريبة والنادرة التي تشد انتباه القارئ، وتجعله يقبل على قراءة الكتاب، الذي تم جمع وقائعه وأحداثه من مصادر موثوقة، راجيا من الله أن يتم تخليد ذكره بين الأجيال القادمة، ويكون شفيعا له، وعملا يتقرب به الى الله. ومما لا شك فيه أن شعر ابن إياس كان معبر وواضح، وفيه حس ابداعي وهو ما يبين الثقافة الشاملة، والمعرفة الشعرية الواسعة التي كان يتمتع بها هذا المؤرخ، فهو صاحب ميول أدبية، وتذوق مرهف للشعر، ويبدو هذا جليّاً في ترجمته كثيراً من الشعراء، وفي شرحه لإنتاجهم، وفي حفظه لأشعارهم، واستشهاده بها في كثير من المناسبات، وكان هو نفسه ينظم الشعر، وقد تزين كتابه بدائع الزهور في وقائع

الدهور بكثير منه. وقد طرق معظم أغراض الشعر، كالمديح، والرثاء، والوصف، والحكمة وغيرها، ويتضح من أشعاره التي كتبها في مناسبات خاصة أو عامة أنه عاش متتبعا حوادث المجتمع الذي تقلب فيه، وليس ذلك بصفته مؤرخا معنيا بتدوين الحوادث والأخبار فحسب بل لأنه كان رجلا حيا حساسا بما يجري في دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال.

المصادر والمراجع

عبد الله يسرى عبد الغني: ١٩٩١، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، بيروت، دار الكب العلمية.

زيادة محمد مصطفى: 1949 المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر ميلادي التاسع الهجري، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة.

ابن اياس: ١٩٨٣ *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

ابن اياس:١٩٥١، *صفحات لم تنشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور*. تحقيق، محمد مصطفى، دار المعارف، القاهرة.

عاصي حسين: ١٩٩٣، *ابن اياس مؤرخ الفتح العثماني لمصر*، دار الكتب العلمية، بيروت.

Brockelmann, Carl, 1909, *Geschichte der Arabischen Litteratur*, 3 tomes, Leiden: Brill. (Traduit vers l'arabe par al-Najjār, 1961-1962, *Tārīkh al-adab al-ʿarabī*).

Lellouch, Benjamin, 2006, *Les Ottomans en Egypte, historiens et conquérants au XVI siècle*, Paris : Peeters.

Wiet,Gaston, 1945, *Journal d'un Bourgeois du Caire. Chronique d'Ibn Iyās*, tome 1, Paris : Bibliothèque générale de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes, VI^{e} section.

Wiet,Gaston, 1960, *Journal d'un Bourgeois du Caire. Chronique d'Ibn Iyās*, tome 2, Paris : S.E.V.P.E.N.

Cahen, Claude, 1936, *« Les chroniques arabes concernant la Syrie, l'Egypte et la Mésopotamie de la conquête arabe à la conquête ottomane dans les bibliothèques d'Istanbul »*, *REI*, Cahier IV, p. 333-362.

Devonshire, R. L., "Extrait de l'histoire de l'Egypte", tome II, par Aḥmad Ibn Iyās al-Hanafy al-Maṣry (Būlāq, 1311 A.H.). Traduit de l'arabe, *Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale*, vol. 25, 1924, pp. 113-145.

Espéronnier, Maryta., 1996, "Un regard du côté mamlouk à travers les témoignages de Maqrīzī et d'Ibn Iyās", *Les Ottomans et la mort : permanences et mutations*, sous la dir. de G.Veinstein Leiden : Brill, p. 175-186.

Espéronnier, Maryta., 1997, "La mort violente à l'époque mamelouke : le crime et le châtiment : les témoignages de Maqrīzī et d'Ibn Iyās", *Der Islam*, vol. 74 no.1, p. 137-155.

Lellouch, Benjamin. , 1995, "Le téléphone arabe au Caire au lendemain de la conquête ottomane : on-dits et rumeurs dans Ibn Iyās", *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, vol. 75-76, p. 117-130.

Lellouch, Benjamin., 1998, "Le douzième ğuz' perdu des Badā'iʿ al-zuhūr d'Ibn Iyās à la lumière d'une chronique Turque d'Egypte", *Arabica*, vol. 45 n°. 1, p. 88-103.

Martel-Thoumian, Bernadette, 2000, "Le manuscrit Tārīkh 4534 de Damas : un nouvel exemplaire de *Badā'iʿ al-zuhūr fī waqā'iʿ al-duhūr* d'Ibn Iyās", *Annales Islamologiques*, p. 315-325.

Martel-Thoumian, Bernadette, 2004, "la mort volontaire : le traitement du suicide et du suicidé dans les chroniques mameloukes tardives", *Annales Islamologiques*, p. 405-435.

Martel-Thoumian, Bernadette, 2013, "Ibn Iyās et les chanteuses ou quand l'art s'invite dans la chronique historique", (872-923/1468-1517), *Journal Asiatique*, vol. 301, p. 425-434.

Martel-Thoumian, Bernadette., 1999, "Les notices biographiques dans les *Badā'iʿ al-zuhūr fī waqa'iʿ al-duhūr* d'Ibn Iyās(années 801-810 / 1398-1408)", *Annales Islamologiques* / Ḥawlīyāt Islāmīya, vol. 33, p. 121-139.

Sauvaget, Jean, 1946, « Trois mois de la vie du Caire sous les derniers Mamelouks »dans *Historiens arabes*, 1 tome. (192 p.)Paris : Adrien-Maisonneuve.

Sobernheim, Moritz, 1936, « Ibn Iyās», *EI.1*.

Wasserstein, D. J., 1992, "Tradition manuscrite, authenticité, chronologie et développement de l'œuvre littéraire d'*IbnIyās*", *Journal Asiatique*, vol. 280 no. i-ii , 1992, p. 81-114.

Winter, Michael, "Ibn Iyās Muḥammad b. Aḥmad", April 2007, dans C. Kafadar/H. Karateke/C. Fleischer: *Historians of the Ottoman Empire*, Harvard University, Center for Middle Eastern Studies

AL AMER Ahmad, 2014 *L'historiographie à l'époque mamelouke à travers l'exemple de l'ouvrage Badā'i' al-zuhūr d'Ibn Iyās : analyse de la méthode et du contenu*, thèse de doctorat sous la direction de Michel Tuchscherer, Aix Marseille Université.

AL AMER Ahmad, 2016 Matériaux, *mentalités et usage des sources chez Ibn Iyās. Mise au point du discours historique dans les Badā'i' al-zuhūr fī waqā'i' al-duhūr*, préfacé par Jean-Claude Garcin, Éditions Universitaires Européennes, Saarbrücken.

AL AMER Ahmad,*2015 Les trois premières sections perdues ou manquantes d'al-Badā'i'* », *Arabica* 62, 2015, p. 1-14.

الهوامش:

[1] نجد ترجمة ابن اياس في عدد من المراجع منها

عنان: ١٩٦٩، ص (١٥٢ – ١٦٨). زيادة: 1949ص (٤٦ – ٥٥). مصطفى ١٩٥١، ص٧. ج٣ ص١٩٠. عاصي حسين: ١٩٩٣ص ٩. عبد الغني يسري ٢٠٠٠، ص ١٢٣. أيضا:

Brockelmann, Carl, 1909 / Lellouch, Benjamin, 2006 / Cahen, Claude, 1936, *REI*, Cahier IV, p. 333-362. / Espéronnier, Maryta., 1996, Brill, p. 175-186. / Espéronnier, Maryta., 1997 *Der Islam*, vol. 74 no.1, p. 137-155. / Lellouch, Benjamin. , 1995, *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, vol. 75-76, p. 117-130 / Martel-

Thoumian, Bernadette, 2000, *Annales Islamologiques*, p. 315-325 / Martel-Thoumian, Bernadette, 2004 *Annales Islamologiques*, p. 405-435. /Martel-Thoumian, Bernadette, 2013, *Journal Asiatique*, vol. 301, p. 425-434. / Martel-Thoumian, Bernadette., 1999, *Annales Islamologiques* / Ḥawlīyāt Islāmīya, vol. 33, p. 121-139.

٢بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٦٣

[٣]بدائع الزهور البدائع ج ٤ ص ١٧٣

[٤]بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٨٦

[٥]بدائع الزهور ج ٤ ص ٨٣.

[٦]بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٧٤

[٧]في كل الترجمات القديمة والحديثة لابن اياس لم نرأن أحدا اشار الى أصحاب ابن اياس وجاء احصائنا لهؤلاء من خلال الدراسة الدقيقة التي قمنا بها لكتاب البدائع

[٨]بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٧٣

[٩]بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٣٨

[١٠]بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٤

[١١]بدائع الزهور ج ٥ ص١٩٨

[١٢]بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٤٧

[١٣]بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٦٥

[١٤]بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٢٢

[١٥]ا بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٨٧

[١٦]بدائع الزهور ص ٤٤٣ ج ٥

[١٧]زيادة: 1949، ص ٥٣

[18]Sobernheim, 1936. Aussi: Brinner, 1975

[19] Lellouch :1998, *Arabica*, vol. 45 n°. 1, p. 88-103. AL AMER : 2014. P 28. Al AMER :2016 P 36. AL AMER : *Arabica* 62, 2015, p. 1-14.

[٢٠]بدائع الزهور ج١ ق١ ص ٣

[٢١]بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ١١٢

[٢٢]بدائع الزهور ج٣ ص٤٤٤

[٢٣]بدائع الزهور ج٣ ص ١٤٦.

[٢٤]بدائع الزهور ج٢ ص ١٠٠

[٢٥]بدائع الزهور ج٢ ص ١٧٧

[٢٦]بدائع الزهور ج٣ ص ١٥٥

[٢٧]بدائع الزهور ج٤ ص ٢٣٤

[٢٨]بدائع الزهور ج ٤ص ١٩٤

[٢٩]بدائع الزهور ج١ ق٢ص١٣٥

[٣٠]بدائع الزهور ج١ق١ص ١٩٤

[٣١]بدائع الزهور ج٢ ص ٣١

[٣٢]بدائع الزهور ج٢ ص ٦٩

[٣٣]بدائع الزهور ج ٢ص ١٩

[٣٤]بدائع الزهور ج٣ ص ٩٧

[٣٥]بدائع الزهور ج٢ ص ٢٥٠

[٣٦]بدائع الزهور ج٢ ص ٣٧٤

[٣٧]بدائع الزهور ج٢ص ١٤٩

[٣٨]بدائع الزهور ج٢ ص ١٨٠

[٣٩]بدائع الزهور ج٢ ص ٢٢٣

[٤٠]بدائع الزهور ج٤ ص ٦٤

[٤١]بدائع الزهور ج٢ ص ٤٢٠

[٤٢]بدائع الزهور ج٣ ص ٢٦٧

[٤٣]بدائع الزهور ج٣ ص٢٢٤

[٤٤]بدائع الزهور ج٣ ص ٣٠٨

[٤٥]بدائع الزهور ج٣ ص ٣٥٥

[٤٦]بدائع الزهور ج٣ ص ٣١٠

[٤٧]بدائع الزهور ج٣ ص ٢٣٤

[٤٨]بدائع الزهور ج٤ ص ٣٥٥

[٤٩]بدائع الزهور ج٢ ص٣٢٢

[٥٠]بدائع الزهور ج ٢ ص ٥١

[٥١]بدائع الزهور ج٢ ص ١٦٠

[٥٢]بدائع الزهور ج٢ ص ٩١

[٥٣]بدائع الزهور ج٤ ص ص ٢٧١

[٥٤]بدائع الزهور ج٥ ص ٤٣٩

[٥٥]بدائع الزهور ج٣ ص ١٨٦

[٥٦]بدائع الزهور ج٣ ص ٢٤٢

[٥٧]بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٧٤

[٥٨]بدائع الزهور ج ٤ ص ٥٣

[٥٩]بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٢٥

[٦٠]بدائع الزهور ج ٥ ص ٧٧

[٦١]بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٤٣

[٦٢]بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٢١

[٦٣] بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٩٩

[٦٤]بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٢٢

[٦٥]بدائع الزهور ج ٤ ص ٦٩

[٦٦]بدائع الزهور ج ٤ ص ٦٨

[٦٧]بدائع الزهور ج ١ قسم ١ ص ٣٣

[٦٨] بدائع الزهور، ج3، ص277

[٦٩]بدائع الزهور ص ٥٢١ ج ١ ق ٢

[٧٠]بدائع الزهور ص ٥٢١ ج ١ ق ٢

[٧١]بدائع الزهور ج ١ ق ٢ ص ٥٥٥

[٧٢]بدائع الزهور ص ٣١٨ ج ٥